{إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللهِ وَ ٱلْفَتْحُ} * {وَ رَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللهِ أَفْوَاجًا} * { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ ٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}(1-3)

لما دلت التي قبلها على أن الكفار قد صاروا إلى حال لا عبرة بهم فيه و لا التفات و لا خوف بوجه منهم ما دام الحال على المتاركة، كان كأنه قيل: فهل يحصل نصر عليهم و ظفر بهم بالمعاركة، فأجاب بهذه السورة بشارة للمؤمنين و نذارة للكافرين، و لكنه لما لم يكن هذا بالفعل إلا عام حجة الوداع بعد فتح مكة بسنتين كان كأنه لم يستقر الفتح إلا حينئذ، فلم يزل سبحانه و تعالى هذه السورة إلا في ذلك الوقت و قبل منصرفه من غزوة حنين، فقال تعالى تحقيقاً لأنه ينصر المظلوم و يعلي دينه و يمهل و لا يهمل، فإنه لا يعجزه شيء، حثًا على التفويض له و الاكتفاء به، مقدمًا معمول "سبح" تعجيلاً للبشارة: {إذا}.

و لما كانت المقدرات متوجهة من الأزل إلى أوقاتها المعينة لها، يسوقها إليها سائق القدرة، فتقرب منها شيئاً فشيئاً، كانت كأنها آتية إليها، فلذلك حصل التجوز بالمجيء عن الحصول فقال: {جاء} أي استقر و ثبت في المستقبل بمجيء وقته المضروب له في الأزل، و زاد في تعظيمه بالإضافة ثم بكونها اسم الذات فقال: {نصر الله} أي الملك الأعظم الذي لا مثل له و لا أمر لأحد معه على جميع الناس في كل أمر يريده.

و لما كان للنصر درجات، و كان قد أشار سبحانه بمطلق الإضافة إليه ثم بكونها إلى الاسم الأعظم إلى أن المراد أعلاها، صرح به فقال: {و الفتح} أي المطلق الصالح لكل

فتح الذي نزلت فيه سورته بالحديبية مبشرة له بغلبة حزبه الذين أنت قائدهم و هاديهم و مرشدهم، لا سيما على مكة التي بها بيته و منها ظهر دينه، و بها كان أصله، و فيها استقر عموده، و عز جنوده، فذل بذلك جميع العرب، و قالوا: لا طاقة لنا بمن أظفره الله بأهل الحرم، فعزوا بهذا الذل حتى كان ببعضهم تمام هذا الفتح، و يكون بهم كلهم فتح جميع البلاد، و للإشارة إلى الغلبة على جميع الأمم ساقه تعالى في أسلوب الشرط، و لتحققها عبر عنه بـ {إذا} إعلامًا بأنه لا يخلف الوعد و لا ينقص ما قدره و إن توهمت العقول أنه فات وقته، و إيذانًا بأن القلوب بيده يقلبها كيف يشاء ليحصل لمن علم ذلك الإخلاص والخوف والرجاء، فأشعرت العبارة بأن الوقت قد قرب، فكان المعنى: فكن مترقبًا لوروده و مستعدًا لشكره.

و قال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما كمل دينه و اتضحت شريعته و استقر أمره صلى الله عليه و سلم وأدى أمانة رسالته حق أدائها عرف عليه صلى الله عليه الصلاة و السلام نفاد عمره و انقضاء أجله، و جعلت له على ذلك علامة دخول الناس في دين الله جماعات بعد التوقف و التثبط

{حكمة بالغة فما تغني النذر}

[القمر: 5]

{لو شاء الله لجمعهم على الهدى}

[الأنعام: 35] و أمر بالإكثار من الاستغفار المشروع في أعقاب المجالس و في أطراف النهار و خواتم المآخذ مما عسى أن يتخلل من لغو أو فتور، فشرع سبحانه و تعالى الاستغفار ليحرز لعباده من حفظ أحوالهم و رعي أوقاتهم ما يفي بعليّ أجورهم كما وعدهم

{و تمت كلمة ربك صدقًا و عدلاً لا مبدل لكلماته}

[الأنعام: 115] و قد بسطت ما أشارت إليه هذه السورة العظيمة – و كل كلام ربنا عظيم – فيما قيدته في غير هذا، و أن أبا بكر رضي الله عنه عرف منها أن رسول الله صلى الله عليه و سلم نعيت إليه نفسه الكريمة على ربه و عرف بدنو أجله، و قد أشار إلى هذا الغرض أيضًا بأبعد من الواقع في هذه السورة قوله تعالى:

{اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الإسلام دينًا}

[المائدة: 3] و سورة براءة و أفعاله عليه الصلاة و السلام في حجة الوداع لكن لم يبلغنا استشعار أحد من الصحابة رضي الله عنهم تعيين الأمر إلا من هذه السورة. و قد عرفت بإشارة براءة و آية المائدة تعريفًا شافيًا، و استشعر الناس عام حجة الوداع و عند نزول براءة ذلك لكن لم يستيقنوه و غلبوا رجاءهم في حياته صلى الله عليه و سلم، و منهم من توفي، فلما نزلت {إذا جاء نصر الله و الفتح} استيقن أبو بكر رضي الله عنه ذلك استيقانًا حمله على البكاء لما قرأها رسول الله صلى الله عليه و سلم – انتهى.

و لما عبر عن المعنى بالمجيء، عبر عن المرئي بالرؤية فقال: {و رأيت} أي بعينيك {الناس} أي العرب الذين كانوا حقيرين عند جميع الأمم، فصاروا بك هم الناس – كما دلت عليه لام الكمال، و صار سائر أهل الأرض لهم أتباعًا، و بالنسبة إليهم رعايًا، حال كونهم {يدخلون} شيئًا فشيئًا متجددًا دخولهم مستمرًا {في دين الله} أي شرع من لم تزل كلمته هي العليا في حال إباء الخلق – بقهره لهم على الكفر الذي لا يرضاه لنفسه عاقل – ترك الحظوظ، و في حال طواعيتهم بقسره لهم على الطاعة، و عبر عنه بالدين الذين معناه الجزاء لأن العرب كانوا لا يعتقدون القيامة التي لا يتم ظهور الجزاء إلا بها {أفواجًا} أي قبائل قبائل و زمرًا زمرًا و جماعات كثيفة كالقبيلة

بأسرها أمة بعد أمة كأهل مكة و الطائف و هوازن و همدان و سائر القبائل من غير قتال في خفة و سرعة و مفاجأة و لين بعد دخولهم واحدًا واحدًا و نحو ذلك لأنهم قالوا: أما إذا ظفر بأهل الحرم و قد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل الذين لم يقدر أحد على ردهم فليس لنا بهم يدان. فتبين أن هذا القياس المنتج هذه النتيجة البديهية بقصة أصحاب الفيل ما رتبه الله إلا إرهاصًا لنبوته و تأسيسًا لدعوته فألقوا بأيديهم، و أسلموا قيادهم حاضرهم و باديهم.

و لما كان التقدير: فقد سبح الله نفسه بالحمد بإبعاد نجس الشرك عن جزيرة العرب بالفعل، قال إيذانًا بأنه منزه عن النقائص التي منها إخلاف الوعد، و أن له مع ذلك الجلال و الجمال، معبرًا بما يفيد التعجب لزيادة التعظيم للمتعجب منه ليثمر ذلك الإجلال و التعظيم و التذلل و التقبل لجميع الأوامر، و يفهم أمره تعالى للنبي صلى الله عليه و سلم بالاشتغال بخاصة نفسه بدنو أجله، و أن اشتغاله بالناس قد انتهى، لأن الدين قد كمل فلم يبق له صلى الله عليه و سلم شغل في دار الكدر: {فسبح} أي نزه أنت بقولك و فعلك بالصلاة و غيرها موافقة لمولاك فيما فعل، و زد في جميع أنواع العبادة، تسبيحًا متلبسًا {بحمد} أي بكمال و إجلال و تعظيم {ربك} أي الذي أنجز لك الوعد بإكمال الدين و قمع المعتدين، المحسن إليك بجميع ذلك، لأنه كله لكرامتك، و إلا فهو عزيز حميد على كل حال، تعجبًا لتيسير الله من هذا الفتح مما لم يخطر بالبال، و شكرًا لما أنعم به سبحانه و تعالى عليه من أنه أراه تمام ما أرسل لأجله، و لأن كل حسنة يعملها أتباعه له مثلها.

و لما أمره صلى الله عليه و سلم بتنزيهه عن كل نقص، و وصفه تنزلاً عن غيب الغيب إلى الغيب بكل كمال مضافًا إلى الرب تدليًا إلى مشاهدة الأفعال، وصل إلى نهاية

التنزل من الخالق إلى المخلوق مخاطبًا لأعلى الخلائق كلهم فأمره بما يفهم العجز عن الوفاء بحقه لما له من العظمة المشار إليها بذكره مرتين بالاسم الأعظم الذي له من الدلائل على العظم و العلو إلى محل الغيب الذي لا مطمع في دكه ما تنقطع الأعناق دونه ليفهم عجز غيره من باب الأولى، فقال معلمًا بأن من كماله أن يأخذ بالذنب إن شاء و يغفر إن شاء و إن عظم الذنب، ليحث ذلك على المبادرة إلى التوبة و تكثير الحسنات و حسن الرجاء: {و استغفره} أي اطلب غفرانه إنه كان غفارًا إيذانًا بأنه لا يقدر أحد أن يقدره حق قدره كما أشار إلى ذلك الاستغفار عقب الصلاة التي هي أعظم العبادات لتقتدي بك أمتك في المواظبة على الأمان الثاني لهم، فإن الأمان الأول – الذي هو وجودك بين أظهرهم قد دنا رجوعه إلى معدنه في الرفيق الأعلى و المحل الأقدس الأولى، و كذا فعل صلى الله عليه و سلم – كان يقول: **"سبحانك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك"** و دخل يوم الفتح مكة مطأطئًا رأسه حتى إنه ليكاد يمس واسطة الرحل تواضعًا لله سبحانه و تعالى إعلامًا لأصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين أن ما وقع إنما هو بحول الله، لا بكثرة مع معه من الجمع، و إنما جعلهم سببًا لطفًا منه بهم، و لذلك نبه من ظن منهم أو هجس في خاطره أن للجمع مدخلاً بما وقع من الهزيمة في حنين أولاً، و ما وقع بعد من النصرة بمن ثبت مع النبي صلى الله عليه و سلم و هم لا يبلغون ثلاثين نفسًا ثانيًا، فالتسبيح الذي هو تنزيه عن النقص إشارة إلى إكماله الدين تحقيقًا لما كان تقدم به وعده الشريف.

و الاستغفار إشارة إلى أن عبادته صلى الله عليه و سلم التي هي أعظم العبادات قد شارفت الانقضاء، و لا يكون ذلك إلا بالموت، فلذلك أمر بالاستغفار لأنه يكون في

خاتمة المجالس و الأعمال جبراً لما لعله وقع فيها على نوع من الوهن و اعترافًا بذل العبودية و العجز.

و لما أمر بذلك فأرشد السياق إلى أن التقدير: و تب إليه، علله مؤكدًا لأجل استبعاد من يستبعد مضمون ذلك من رجوع الناس في الردة و من غيره بقوله: {إنه} أي المحسن إليك غاية الإحسان بخلافته لك في أمتك، و يجوز أن يكون التأكيد لأجل دلالة ما تقدم من ذكر الجلالة مرتين على غاية العظمة و الفوت عن الإدراك بالاحتجاب بإرادته الكبرياء و العز و التجبر و القهر مع أن المألوف أن من كان على شيء من ذلك كان بحيث لا يقبل عذرًا و لا يقبل نادمًا {كان} أي لم يزل على التجدد و الاستمرار {توابًا} أي رجاعًا بمن هذب به الشيطان من أهل رحمته فهو، الذي رجع بأنصارك عما كانوا عليه من الاجتماع على الكفر و الاختلاف و العداوات فأيدك بدخولهم في الدين شيئًا فشيئًا حتى أسرع بهم بعد سورة الفتح إلى أن دخلت مكة في عشرة آلاف، و هو أيضًا يرجع بك إلى الحال التي يزداد بها ظهور رفعتك في الرفيق الأعلى و يرجع عن تخلخل من أمتك في دينه بردة أو معصية دون ذلك إلى ما كان عليه من الخير، و يسير بهم أحسن سير، فقد رجع آخر السورة إلى أولها لأنه لو لا تحقق وصفه بالتوبة لما وجد الناصر الذي وجد به الفتح و التحم مقطعها أي التحام بمطلعها، و علم أن كل جملة منها مسببة عما قبلها، فتوبة الله على عبده نتيجة توبته باستغفاره الذي هو طلب المغفرة بشروطه، و ذلك ثمرة اعتقاده الكمال في ربه، و ذلك ما دل عليه إعلاؤه لدينه، و قسره للداخلين فيه على الدخول مع أنهم أشد الناس شكائم و أعلاهم همًا و عزائم، و قد كانوا في غاية الإباء له و المغالبة للقائم به، و ذلك هو فائدة الفتح هو آية النصر، و قد علم أن الآية الأخيرة من الاحتباك: دل بالأمر بالاستغفار على الأمر بالتوبة، و بتعليل الأمر بالتوبة على

تعليل الأمر بالاستغفار، و علم أن السورة أشارة إلى وفاته صلى الله عليه و سلم بالحث على الاستغفار الذي هو الأمان الثاني، و من شأنه أن تختم به الأعمال و المجالس بعد ما أشار إليه إعلامها بظهور الدين على الدين كله و نزولها في أوسط أيام التشريق من حجته عليه أفضل الصلاة و السلام سنة عشر كما ذكرته في كتابي "مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور "و كتابي" الاطلاع على حجة الوداع "و ذلك بعد نزول آية المائدة – التي هي نظيرتها في رد المقطع على المطلع – في يوم عرفة

{اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الإسلام دينًا} [المائدة: 3] و من المعلوم أنه لا يكون في هذه الدار كمال إلا بعده نقصان، و لذلك سماها النبي صلى الله عليه و سلم حجة الوداع و خطب الناس فيها، فعلّمهم أمور دينهم و أشهدهم على أنفسهم و أشهد الله عليهم بأنه بلغهم، و ودعهم و قال: لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، و أشار إلى ذلك أيضًا بالتوبة وإلى وقوع الردة بعده صلى الله عليه و سلم و رجوع من ارتد إلى أحسن ما كانوا عليه من اعتقادهم في الدين و ثباتهم عليه بقتل من كان مطبوعًا على الكفر المشار إليهم بقوله تعالى: **{و لو أسمعهم}** [الأنفال:23] – أي إسماع قهر و غلبة وقسر – **{لتولوا و هم معرضون}** [الأنفال: 23] فكان وجودهم ضررًا صرفًا من غير منفعة و قتلهم نفعًا لا ضرر فيه بوجه، و لأجل إفهامها حلول الأجل للإيذان بالتمام بكى العباس رضي الله تعالى عنه – و في رواية: ولده عبد الله – عند نزولها فسأله النبي صلى الله عليه و سلم فقال:

"نعيت إليك نفسك" فقال: إنه لكما تقول. كما بكى عمر رضي الله عنه عند نزول آية المائدة، و علل بهذا – و الله الهادي، و قد ظهر بهذا أن حاصلها الإيذان بكمال الدين و دنو الوفاة لخاتم النبيين، و النصر على جميع الظالمين الطاغين الباغين، و ذلك من أعظم مقاصد المائدة، المناظرة لهذه في التطبيق بين البادئة و العائدة، كما أشار إليه قوله تعالى:

{اليوم أكملت لكم دينكم}

[الأنعام: 3] و قوله تعالى:

{و من يتولى الله و رسوله و الذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون}

[المائدة: 56] و قوله تعالى:

{لله ملك السماوات و الأرض و ما فيهن و هو على كل شيء قدير}

[المائدة: 120] و من أعظم لطائف هذه السورة و دقيق بدائعها و لطيف منازعها أن كلماتها تدل بأعدادها على أمور جليلة و أسرار جميلة، فإنها تسع عشرة كلمة، و قد كان في سنة تسع عشرة من الهجرة موت قيصر طاغية الروم، و ذلك أن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه لما فتح الإسكندرية قال قيصر: لئن غلبونا على الإسكندرية لقد هلكت الروم، فتجهز ليباشر قتالهم بنفسه، فعندما فرغ من جهازه صرعه الله فمات و كفى الله المسلمين شره، و ذل الروم بذلك ذلاً كبيرًا، و استأسدت العرب، و في هذه السنة أيضًا فتح الله قيسارية من بلاد الشام فلم يبق بالشام أقصاها و أدناها عدو، و فرح المسلمون بذلك فرحًا شديدًا، و كان فيها أيضًا فتح جلولاء، من بلاد فارس، و كان فتحها يسمى فتح الفتوح، لأن الفرس لم ينجبروا بعده، هذا إن عددنا ما يوازي كلماتها من سنة الهجرة، و إن عددنا من سنة نزول السورة في سنة عشر فقد فتحت سنة تسع و عشرين من الهجرة – و هي التاسعة عشرة من نزولها – مدينة

اصطخر، و اشتد ضعف الفرس، و أمر ملكهم يزدجرد و اجتهاده في الهرب من العرب حتى قتل سنة إحدى و ثلاثين من الهجرة بعد ذلك بسنتين، و ذلك هو العد الموازي لعد كلماتها ظواهر و ضمائر مع كلمات البسملة، و إذا نظرت إلى ما هنا من هذا و طبقت بينه و بين ما ذكر في سورة الفتح من مثله زاد عجبك من باهر هذه الآيات — و الله الموفق، ثم إنك إذا اعتبرت اعتبارًا آخر وجدت هذه السورة كا دلت بجملتها على انقضاء زمن النبوة بموت النبي صلى الله عليه و سلم دلت بمفردات كلماتها على انقضاء خلافة النبوة لتمام ثلاثين سنة كما قال النبي صلى الله عليه و سلم فيما رواه أبو داود و الترمذي و النسائي وابن حبان في صحيحه عن سفينة مولى النبي صلى الله عليه و سلم ورضي عنه

"خلافة النبوة ثلاثون، ثم يؤتي الله الملك من يشاء" و ذلك أنك إذا عددت كلماتها مع البسملة كانت باعتبار الرسم ثلاثًا و عشرين كلمة، و ذلك مشيرًا إلى انقضاء الخلافة التي لم تكن قط خلافة مثلها، و هي خلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه باستشهاده في ذي الحجة سنة ثلاثة و عشرين من الهجرة، فإذا ضممت إلى ذلك الضمائر البارزة و هي خمسة، و المستترة و هي ثلاثة، فكانت أحدًا و ثلاثين، و حسبت من حين نزول السورة على النبي صلى الله عليه و سلم في ذي الحجة سنة عشر كان ذلك مشيراً إلى انقضاء خلافة النبوة كلها بإصلاح أمير المؤمنين الحسن بن علي رضي الله عنهما في شهر ربيع الأول سنة إحدى و أربعين، و ذلك عند مضي ثلاثين سنة من موت النبي صلى الله عليه و سلم في شهر ربيع الأول سنة عشر من الهجرة لا تزيد شهرًا و لا تنقصه، و إن أخذت الضمائر وحدها بارزها و مستترها دلت على فتح مكة المشرفة بعينه، فإنها – كما مضى – ثمانية و قد كان الفتح سنة

ثمان من الهجرة، و من لطائف الأسرار وبدائع الأنظار أنها تدل على السنين بحسب التفصيل، فالبارز يدل على سنة النصر و الظهور على قريش لأنهم المقصودون بالذات لأن العرب لهم تبع، و المستتر يدل على ضد ذلك، و شرح هذا أنه لما كانت قد خفقت في السنة الأولى من الهجرة رايات الإسلام في كل وجه، و انتشرت أسده في كل صوب، و انبثت سراياه في كل قطر، أشار إليها التاء في {و رأيت} التي هي ضميره صلى الله عليه و سلم إشارة إلى ما يختص بفهمه من البشارة. و لما كان في السنة الثانية بغزوة بدر من واضح الظفر و عظيم النصر ما هدّ قلوب الكفار، و شد قلوب الأنصار في سائر الأمصار، و أعلى لهم القدر، أشار إلى ذلك واو {يدخلون}، و لما حصل في السنة الثالثة ما لم يخف من المصيبة في غزوة أحد التي ربما أوهمت بعض من لم يرسخ نقصًا، أشار إلى ذلك الضمير المستتر في {فسبح}، و لما كان الخبر في الرابعة بأجلاء بني النضير و إخلاف قريش للوعد في بدر جبنًا و عجزًا حيث وفى النبي صلى الله عليه و سلم و أصحابه رضي الله تعالى عنهم شجاعة و قوة بحول الله و انقلبوا، منها بنعمة من الله و فضل لم يمسهم سوء، أشار إلى ذلك الكاف في {ربك} و لما كان في الخامسة غزوة الأحزاب أشار إليها المستتر في {و استغفره} و لما كان في السادسة عمرة الحديبية التي سماها النبي صلى الله عليه و سلم فتحًا، أنزل الله فيها سورة الفتح لكونها كانت سببًا للفتح، فكان ذلك علمًا من أعلام النبوة، و لبعث النبي صلى الله عليه و سلم فيها إلى الملوك يدعوهم إلى الله تعالى أشار إلى ذلك الضمير البازر في {و استغفره} و أكد قوته كونه للرب تعالى، و لما كان في السابعة غزوة خيبر و عمرة القضاء أشار إليها الضمير الظاهر في {إنه} و لما كان ضمير {كان} لله، و كان له سبحانه حضرتان: حضرة غيب و بطون، و حضرة شهادة و ظهور، و كانت حضرة الغيب هي حضرة الجلال و الكبرياء و العظمة و التعالي، و

حضرة الشهادة حضرة التتزل بالأفعال و الاستعطاف بالأقوال، كانت الحضرتان للنصر، و كانت حضرة الغيب أعظمهما نصرًا و أشدهما أزرًا، فلذلك كان ضمير الاستتار دالاً على الفتح الأكبر بالانتصار على السكان و الديار بسطوة الواحد القهار، على أنا إذا نظرنا إليه من حيث كونه جائز البروز كان البارز فله حكمه – فسبحان من شمل علمه، و دقت حكمته فنفذ حكمه.